

دفاع عن الشعر الجاهلي

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

- ١ -

كثرت في العصر الحديث مقالات الأدباء والنقاد في الزرابة بالشعر الجاهلي ، وتنقصه ، ورميه بالقدم والجود ، والدعوة إلى تركه والانصراف عنه ؛ وعييه حيناً بخلوه من الشعر التمثيلي والقصصي ، وحيناً بتفككه وعدم وجود وحدة للقصيدة في آثاره الفنية الباقية ، وباضطراب معانيه وعدم تمثيله إلا للبيئة البدوية الجاهلية وحدها ، وحيناً آخر يرمونه من ناحية الصياغة واللفظ والنظم بأكثر مما يباب به شعر قديم أو حديث

يمشي الهويثا إذا مارام فرقتنا كأنه بطة تنجر في شبكه لا يستقر فأما حين يطلبنا فلا سليك يدانيه ولا سلكه كأنه طالب ثاراً على فرس أجد في إثر مطلوب على رمكه با صدق من قال أيام مباركة إن كان يكنى عن اسم الطول بالبركة وسليك وسلكه من عدائي العرب التهوين والرمكة الفرس فالخارثي هذا يشكو ثقل رمضان وبطء سيره لأنه يكرهه وأحباب آخر على الناس ما يبديون من الرغبة واقضاء رمضان وتصمره وفي مروره بمجمل التعجل بانتقاص أيام عمره

مضى رمضان محمداً وراقى علينا الفطر يقدمه السرور وفي مر الشهور لنا فناء ونحن نحب لن نغنى الشهور وقد قال في نفس المعنى الشاعر الآخر

يسر المرء ما ذهب الليالي وكان ذهابين له ذهاب وعسانا أطلنا الحديث وشغلنا قراء (الرسالة) الذراء بالتحدث من رمضان الذي شغل الأدباء والشعراء طوال العصور الإسلامية ولقد بقيت في نفوسنا بقية من الحديث عن رمضان ترجلا إلى العام المقبل قال المتنبي

بناد

ضياء المرخيلي

الطبيب المتربن في المستشفى
التعليمي سابقاً

وقد حمل لواء هذه الدعوات أدباء كان نصيبهم من دراسة الأدب العربي أو الأدب الجاهلي وحده محدوداً ضئيلاً ؛ وآخرون قرأوا الأدب الجاهلي فلم يطاربوا له ، ولم يرتاحوا إليه ، ولم يفهموه حق الفهم ؛ وفريق آخر تدفعه إلى ذلك الشهوية الحديثة التي ترى مظهرها بادياً في تنقص كل ما هو عربي أو قديم والتمسب لكل ما هو غربي أو حديث

ولاشك أن في أكثر آرائهم جوراً في الحكومة الأدبية وإسرافاً ومغالاة كثيرين . فلكل شعر جيد - كما يقول الدكتور طه حسين بك في الأدب الجاهلي - ناحيتان مختلفتان ، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفني المطلق ، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعاً مؤثراً فيهم ، ولكن بشرط أن يمدوا الفهم وتدوقه ؛ وهو من ناحية أخرى مرآة تمثل في قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره ، وهو من هذه الناحية متصل بزمانه ومكانه ؛ فازدراء الشعر الجاهلي غلو ليس أقل إيماناً في الخطأ من ازدراء الشعر الأجنبي .

إننا لا ننكر أنه تحول دون فهم الشعر الجاهلي وتدوقه صعوبات كثيرة ، أهمها صدوبة لغته وأسلوبه وبعد الأند يصور البيئة العربية القديمة وألوان الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ومشاهد الطبيعة والوجود إبان ذلك العهد البعيد . ولكن ذلك لا يمكن ألا يصح أن يصرفنا عن هذا الجمال الفني الرائع الذي نجده في الشعر الجاهلي . فضلاً عما فيه من تخليد لآثار الحياة العربية الأولى وأحداثها ومظاهر التفكير فيها . ومع ذلك كله فإن الشعر الجاهلي أقوى دعامة للعربية وحفظها ومخلودها بعد القرآن الكريم

فهو من حيث إنه صورة من صور الفن والخيال والجمال ، ومن حيث إنه أساس الثقافة الأدبية والعربية ؛ لا يمكن لذلك ولنغيره أيضاً الاستغناء عن هذا الشعر القديم وبذنه ورامنا ظهرياً في الشعر الجاهلي جمال ، وهو أيضاً لا يخلو من هنات ؛ وفيه روعة ، وإن كنا لا نبرئه من العيب ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرك المذهب الفني الذي يمثل الشعر الجاهلي ، وأن نتعرف خصائصه وعناصره لنرى إلى أي حد يصح أن نجاري هؤلاء وهؤلاء من النقاد والتمسجين على الشعر الجاهلي القديم ، وإلى

وسواه ، واسكن المصور الأخيرة كانت نمد المذوبة ضعفا في الشاعر وميلاته إلى العامية ، وبهذه النظرة كانوا يحكون على شعر الهاء زهير الشاعر المصري المشهور، ولكننا نقول للناشئين: ربوا ذرةكم الأدبي، وارفعوا مشاعركم الفنية، وتأثروا في حياتكم ومذاهبكم الأدبية بالحياة والحضارة التي تمشون فيها ، وستدركون بأنفسكم الحقيقة الأدبية في هذه المسألة الفنية . ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلاسته يجب أن تبرز في إنتاج الشاعر وفنه ، لأثر الحياة والحضارة في نفسه ؛ ومع ذلك فهذه المذوبة والرقعة يجب ألا تنقلب ضعفا وعامية ، وأن توشى بألوان من الجزالة في مواقف خاصة تستدعيها حياة الشاعر ونفسه قبل كل شيء ؛ كما يجب ألا تنقلب الجزالة حرسية وإغرابا وتمقيدا عند الشعراء الذين يحافظون على الجزالة . وأحسب أن شعراءنا المعاصرين الذين يتكفون الألفاظ اللغوية الكثيرة البعيدة في قصائدهم إنما يفعلون ذلك تقليدا لحسب وفي مطلع حياتهم الفنية التي يكثر فيها الناشئون من التقليد ؛ ولو كانت قصيدة - نهج البردة لشوقي مثلا - قد صيغت في أسلوب عذب رقيق سهل عن أساليبها التي صيغت فيه ، لسكان أرها الأدبي أعظم في نفس الأمة وذوقها ومشاعرها الأدبية . ونحن على أي حال لا يمكن أن نعيب الشعر الجاهل الجزالة ، فقد رأيت موقف النقاد من الجزالة وإعجاب الكثير منهم بها ودفاعهم عنها ؛ فوق أنها أثر من آثار البيئة في الشعر الجاهل .

ومن خصائص الشعر الجاهل أيضا القصد إلى المعنى في إيجاز وبسر وقلة إطناب . ولا شك أن المصور الأدبية التي تلت العصر الجاهلي وتعددت فيها ألوان الثقافات ومظاهر الحضارات قد أبعدت الشاعر عن هذا الانجاء ، ودفعته إلى الإطناب وشتى ألوان التصوير ؛ ووقف النقاد حيال ذلك طوائف : طائفة تدعو إلى الإيجاز وتراه البلاغة والبيان ، وطائفة تشيد بالإطناب وترى فيه جمال الفصاحة وروعة التصوير ، وأخرى تحدد للإطناب مواضع وللإيجاز مواضع كقدامة في نقد النثر وابن سنان في سر الفصاحة . ونحن لا نقول للشاعر المعاصر : آثر الإيجاز أو اعمد إلى الإطناب ؛ وإنما نقول له : إن أساس الجودة الفنية أن تؤدي

أي مدى يصح أي تسير في الدفاع عنه ؛ فذلك أقرب إلى العدالة الأدبية في البحث والناقشة

أول ما نعرفه من خصائص الشعر الجاهل البساطة والصدق والوضوح وعدم التكلف أو الأعراق في الأداء . وهذا شيء يسله النقاد للشعر الجاهل تسليما ، ويجزمون به ؛ وهو ما يدفعنا إلى الإعجاب به واللذة الفنية حين نقرأه ونستمع إليه ، ولا يمكن أن يكون في ذلك ما يدعو إلى التهور من شأنه ، فالجمال أو أحد أسبابه لا يدعو إلا إلى الإعجاب والحب والتمتع . بل إن هذه الميزة الواضحة في الشعر الجاهل هي نفس ما يدعو إليه نقادنا المحدثون ودعاة التجديد في الأدب العربي الحديث ؛ بعد أن أبدوا المحدثون الشعر عن البساطة والأخلاص ، وهما الصفتان اللتان كانتا حسننا له ؛ كما يقول الدكتور ضيف (١)

ويعتاز الشعر الجاهل أيضا بالزهد في المحسنات والوان التزيين المعنى ؛ وهذه سمة غالبية عليه . وأدباؤنا المحدثون لا يزالون يدعون إلى هذا المذهب . وقد كان الشعر المصري الحديث في أول نهضته مثقلا بقيود الزخرف البديهي الموروث عن العصر التركي والعثماني وأواخر العصر العباسي ، إلى أن تار النقاد على ذلك النهج ودعوا إلى الخلاص من آثاره ، حتى برى الشعر الحديث من عاهته ، وسار طلبا إلى غاياته . وقد ظهرت في الأدب الأوربية أيضا صفة الزخرف الفني في المصور الوسطى ، كما حدث في الأدب الفرنسي في أعقاب عهد لويس الرابع عشر ، وفي الأدب الإنجليزي بعد عصر اليصابات . أفنقول بعد ذلك إن الشعر الجاهل يصاب لهذه الحسنة الظاهرة ، ويؤدي لذلك الفضل الظاهر ؟

ومن خصائص الشعر الجاهل متانة الأسلوب وقوته وجزالته وأسرته ؛ والبيئة البدوية أثر بعيد في ذلك ، وقد سار المحدثون في العصر العباسي على هذا النهج حينما ، وحينما آخر أغرقوا في المذوبة والسلاسة والسهولة التي ورثوا بعضها عن العصر الأموي ومدرسة الغزاليين التي شاعت فيه . وقد دافع بعض النقاد عن الجزالة والقوة كما دافع آخرون عن المذوبة والرقعة ، ووقف آخرون يحددون مواقف هذه ومواقف تلك كإثر الأثر في المثل السائر